جواد بولس

الموسوعة التاريخيّة

شعوب الشرق الأدنى وحضاراته

تاريخ مقارن منذ الأصول حتّى يومنا

الجزء الرابع

منذ التوسّع العربيّ ـ الإسلاميّ
حتّى الفتح التركيّ ـ العثمانيّ
(٦٤٠ ـ ١٥١٧)

تعريب وتحقيق

سيمون عوّاد بمعاونة فاري عوّاد

الناشر دار عوّاد للطباعة والنشر ـ إشراف مؤسّسة جواد بولس
بيروت ـ ١٩٩٣

جَميع الحُقوق مَحفوظة
(بما فيها التعريب والتحقيق)

لكل المراجعات:

سيمون عواد، دار عواد ـ سنتر سانت ايلي ـ بلوك (ث)، الطابق الأول.
انطلياس. تلفون ـ فاكس ٤٠٤٧٠٥ ـ ٠٤/٩٢٦٣٢٢، ص.ب. ٧٠٧٦١.

تمهيد

الشرق القديم أو ما قبل العربي والشرق العربي:
إستمرارية تطورهما المتتالي منذ الأصول

إن ظهور الإسلام في القرن السابع من عهدنا والذي أسس في الوقت نفسه ديناً وأمة ودولة، كان يمثل في نظر شعوب الشرق الأدنى في ذلك العصر تحقيق مفهومهم الوراثي للمجتمع المثالي تحقيقا تاما حيث الشؤون الدينية والمدنية والسياسية متداخلة بعضها في بعض بشكل وثيق.

وخلافاً للمدينة الإغريقية أو اللاتينية القديمة حيث كان المواطنون متحدين خصوصاً بفعل إنتمائهم إلى وطن جغرافي واحد،فإن الدولة الشرقية القديمة ومنذ الأصول قد شكلت بإستمرار كما رأينا «دولة الله» والتي أعضاؤها على الأخص من الطبقات الحاكمة وتربطهم بعضهم ببعض روابط القربى العرقية والدينية وحيث القانون والسلطة السياسية ينبعان من مصدر إلهي.

وبمناسبة التغييرات السياسية واللغوية والدينية والثقافية والإجتماعية التي أحدثها إنتشار عرب الإسلام ابتداء من منتصف القرن السابع في بلدان الشرق الأدنى،ولفهم أفضل لذلك الإنتشار وللأحداث الكبرى التي واكبته وتلته، لا بد من التذكير بإقتضاب ببعض الدوائم أو الثوابت العامة من جغرافية وإجتماعية ونفسية وتاريخية وقد عرضناها في مقدمة الجزء الأول من مؤلفنا وإستطعنا التحقق منها من مراقبتنا لتطور مجتمعات الشرق الأدنى منذ الأصول.

١ ـ الدوائم التاريخية الشرقية

إن الأحداث السياسية والإجتماعية الكبرى في تاريخ شعوب الشرق الأدنى التي تحتمها في الوقت نفسه العوامل الجغرافية الثابتة إجمالاً والطبائع العرقية التي يبوتقها الوسط الطبيعي وهي دائمة نسبياً، وقد تكررت هذه الأحداث بشكل شبه دوري منذ الأصول وحتى التوسع العربي ـ الإسلامي وستتكرر بشكل شبه منتظم بعد هذا التوسع،تكشف عن وجود بعض الدوائم أو الثوابت التاريخية وتبدو كأنها خاضعة لسُنن.

إن الدوائم الرئيسية أو الثوابت التي تبرز في تاريخ الشرق الأدنى والتي يمكننا إستخلاصها من السلسلة الطويلة لأهم أحداث الماضي هي، كما نعلم، التالية: عداء المناطق الداخلية أو القارية للمناطق المتوسطية أو البحرية، معارضة الشعوب الحضرية في بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر للشعوب البدوية في الصحراء السورية ـ العربية، تنافس بلد الفرات وبلد النيل على إمتلاك الممر السوري ـ الفلسطيني، التجزئة الجغرافية والعرقية والسياسية لمجمل الشرق المتوسطي عامة وللهلال الخصيب[1] بخاصة، إنتشار الشعوب المتحركة بإتجاه الهلال الخصيب ذلك الممر الكبير بين الشرق والغرب، الشمال والجنوب إلخ...

إن تلك الدوائم والثوابت التي تظهر بوضوح في تاريخ الشرق ما قبل العربي خلال الآلاف الأربعة من السنين التي سبقت الإسلام ستستمر في الظهور خلال تطور الشعوب الشرقية اللاحق منذ الإنتشار العربي ـ الإسلامي وحتى أيامنا هذه، على الأخص العراق(بلاد ما بين النهرين) المنجذب فطرياً منذ سرجون الأول(٢٧٢٥ ـ ٢٦٧٠ق.م.) نحو المتوسط الشرقي أو البحر الأعلى فإنه يطمح بإستمرار بوضع يده على سورية التي تفصله عنه. وأما مصر من جهتها والتي ترى نفسها مهددة بفعل قيام أمبراطورية سورية ـ ما بينهرية تنشأ على حدودها الشرقية، فتنزع غريزياً ومنذ فراعنة السلالة الخامسة

(١) إن تسمية الهلال الخصيب هي كما رأينا سابقاً، تعبير جغرافي حديث يشمل بلدان ما بين النهرين وسوريا وفلسطين ولبنان بمجملها.

(٢٦٨٠ ـ ٢٥٤٠ق.م.) إلى محاربة تلك الأمبراطورية والحؤول دون إستقرارها في سورية وفلسطين.

وقد عرضنا في الجزء الأول من مؤلفنا الأسباب العامة أو السُنن التي تحدد تلك الدوائم أو الثوابت التاريخية: وسوف نذكر بإقتضاب تلك السُنن التي تحدد إستمرارية الذاتية الجماعية والوحدة النفسية والشخصية التاريخية لدى مختلف شعوب الشرق الأدنى برغم التغييرات المتعددة التي تطرأ على اللغة والدين والمؤسسات والتي شهدتها تلك الشعوب خلال تطورها على مدى آلاف السنين.

٢ ـ التجمعات الجغرافية أو الشعوب
ميزات نفسية دائمة نسبياً

أ ـ أ ـ البلد والشعب أو الأمة الجغرافية.

لقد سبق ورأينا أن عامل الوراثة والوسط الطبيعي يسهمان في تكوين الطبائع الإنسانية سواء الجسدية منها أو النفسية، الفردية أو الجماعية. فأي وسط جغرافي يكون إلى حد ما متميزاً يؤدي إلى نمو مجموعة إجتماعية متفاوتة التجانس وذلك بطبعه الأفراد الذين يؤلفونها بميزات عامة متشابهة تقريبا وشبه دائمة.

إن العرق الصافي جسدياً لا وجود له في الواقع. وإن ما نعنيه عادة بهذا الإسم إنما هي التجمعات البشرية المركبة (المتعددة الأعراق) والتي يكون أفرادها المتحدرون من مزيج أعراق رئيسية وأعراق فرعية مختلفة خاضعين للتأثير المشترك الذي تحققه عوامل الوراثة والبيئة عليهم فتكيفهم وتبوتقهم من الناحية الجسدية وخصوصاً النفسية. وهذه المزائج المستقرة التي تكيفها وتبوتقها أوساط جغرافية غير متشابهة ومتميزة إلى حد ما (مناطق طبيعية أو تاريخية) يشكل كل منها ذاتية جماعية ووحدة إقتصادية وأمة جغرافية شبه متجانسة «وتقوم إرادة البشر بقولبتها في وحدة سياسية».

إن تلك التجمعات الجغرافية أو التاريخية(شعوب أو أمم) والتي يمتلك كل منها طبائع خاصة أو قومية شبه دائمة تشكل في نظر التاريخ والسياسة وعلم الإجتماع وحدات نفسية ووقائع حية وفرديات فاعلة. فالأفراد الذين يؤلفونها هم أناس متشاركون أكثر مما هم بشر متشابهون. إن تلك التجمعات

الإجتماعية أو الشعوب المكونة من مزائج مستقرة هي التي تحرك الأحداث التاريخية وتصنعها .

إن تطور التجمعات الجغرافية أو الشعوب، والذي تحدده السنن الطبيعية والجغرافية والبيولوجية والتي هي ثابتة نسبياً،وعلى غرار تطور الأفراد، يجري بحسب تطور تدريجي يترابط ويتسلسل فيه كل شيء. بمعنى أن الأحداث العادية، كما الأحداث الإستثنائية، ترتبط بمجموعة شاملة من الأحداث السابقة التي تمهد لها وتوضحها. وينتج عن ذلك أن تطور شعب ما، على غرار حياة الفرد، يشكل إستمرارية في الزمن منذ الأصول الأولى.

ب ـ الطبائع الإثنية، العرقية أو القومية وطبيعتها الداخلية والدائمة

إن الطبائع الإثنية، العرقية أو القومية الأساسية أو الجوهرية هي «سلوك فطري» وعناصر وراثية وداخلية تقولبها وترسخها الظروف الطبيعية والوراثة وتالياً فهي دائمة نسبياً.

إن هذه الطبائع العرقية الوراثية التي تسم الشعوب وتميزها بوجه خاص، بعضها عن بعض، تشمل مجمل المواهب والإستعدادات الفعالة والحالات العاطفية عند الإنسان (النشاط، الإرادة، الشجاعة، النزعات، العاطفة، الإنفعال، المؤهلات الروحية والخلقية والفنية إلخ . . .) والتي تشكل الروح الدائمة في شعب ما وهي المحركات الرئيسية لأعماله. وتحت التأثير المبوتق الذي تحدثه العوامل الطبيعية في البيئة فإن الطبائع الإثنية أو العرقية في الفاتحين الأجانب الذين يستقرون في البلاد المحتلة تتغير هي نفسها على المدى الطويل وتتسم تدريجياً بسمة السكان الأصليين الخاصة.

ج ـ الطبائع المكتسبة أو الإجتماعية وطبيعتها الخارجية والمتغيرة

وخلافاً للطبائع الإثنية، العرقية أو القومية التي تحددها الوراثة والوسط الجغرافي، وهي ثابتة نسبياً، فإن الطبائع المكتسبة أو الإجتماعية (اللغة، الدين، الحضارة، المعرفة، المعارف الخاصة، العادات والأعراف الإجتماعية إلخ . . .) هي عناصر خارجية أو «سلوك مكتسب» بعد الولادة ولا يمكن نقله إلى الذرية وهو متغير حتماً.

إن التغييرات اللغوية والدينية والإجتماعية والسياسية التي تطرأ على مجموعة جغرافية ما أو شعب خلال تطوره المتتابع عبر العصور لا تؤثر مطلقاً

بعمق أو بشكل دائم على ذهنية هذا الشعب وصميم نفسه وطبائعه العرقية وهي كلها فطرية ودائمة. فتلك التغييرات هي من حيث المبدأ سطحية وثانوية بمعنى أنها لا تغير عامة إلا الطبائع المكتسبة أو الإجتماعية والتي هي، كما رأينا، عناصر خارجية ومتغيرة ولا يمكن نقلها بالوراثة. فالشعوب، كالأفراد، عندما تغير لغتها أو دينها تبقى حية أو بالأصح تستمر في الزمن والمدى مع الإحتفاظ بخصائصها الإثنية، النفسية أو العرقية وبكلمة أخرى بطبائعها الجوهرية أو القومية.

د ـ إستمرارية تاريخ شعوب الشرق الأدنى قبل الإسلام وبعده

وعليه فإن كتابة تاريخ الشرق الأدنى إنطلاقاً من إنتشار عرب الإسلام في القرن السابع هو بمثابة بدء كتابة سيرة إنسان منذ لحظة بلوغه سن الرشد. ولذا فمن الخطأ الأكيد تقسيم التاريخ العام في الشرق الأدنى إلى حقبتين كبيرتين متميزتين كما يحصل عادة: الأولى قديمة هي حقبة ما قبل العربية وما قبل الإسلام والثانية حديثة هي عربية وإسلامية وتفصل بينهما، إذا صح القول، هوة عميقة القرار.

إن هذا القطع المصطنع والعشوائي في التطور التاريخي للشرق الأدنى مغلوط فيه علمياً ومن نتائجه أنه يجعل تاريخ هذه المنطقة بدءاً من العهد الإسلامي مبهماً. فشعوب الشرق المتوسطي السابقة للعرب والتي كانت تعد في القرن السابع ب.م. نحو خمسة وعشرين مليوناً لم تُبَدْ أو تطرد من بلادها على يد الجيوش العربية. بل على العكس سنرى أن تلك الشعوب التي لم تعتمد إلا تدريجاً لغة الفاتحين العرب ودينهم سيظل كل منها في بلاده ويتابع بعد تعربه وإسلامه تطوره التاريخي الخاص محتفظاً بطبائعه الإثنية الأساسية، الوراثية والدائمة. وحدهم السادة القدماء اليونان ـ البيزنطيون الذين هزمهم العرب أجلوا عن هذه البلاد.

وما من ريب بأن الإنتشار العربي ـ الإسلامي الذي يعد من أكبر ملاحم التاريخ قد قلب أوضاع عالم الشرق الأدنى في ذلك العصر وكان له بفعل نتائجه وإنعكاساته، تأثير كبير على تطور شعوب الشرق الأدنى ومصائرها. «لكن كما أن مشهداً طبيعياً ما وإثر زلزال كبير سرعان ما يستعيد تقريباً ملامحه أو خطوطه الأصلية وبنيته الجيولوجية هكذا فإن الشعب الذي يجتاز هزته الثورية، منتقلاً إلى نظام مستقر، يستعيد حتماً محاوره الأساسية وقواعده الدائمة».

٣ ـ الشرق ما قبل العربي أو الشرق القديم

قبل التوسع العربي عرف الشرق الأدنى خلال آلاف السنين الماضية غزوات كبيرة أخرى غيرت وبدلت مرات متكررة أسماء ومؤسسات ولغات وأديان الشعوب المتفرقة في هذه المنطقة. ولكن بعد كل إضطراب من هذه الإضطرابات كانت الشعوب الأصلية تستعيد، كما رأينا، طبائعها القومية السابقة تدريجياً. وسيان مع لغاتها الخاصة وأديانها الخاصة أو الأديان واللغات التي إكتسبتها من الغزاة الأجانب، كانت تتابع تطورها التاريخي كما في الماضي بعدما تكون قد إستوعبت أو أخرجت العناصر الغريبة التي كانت تسودها. ولنذكر بهذه المناسبة غزوات الكاسيين في بلاد ما بين النهرين (١٧٥٠ ـ ١١٧٥ق.م.) والهكسوس في مصر (١٦٥٠ ـ ١٥٨٠ق.م.) «وشعوب البحر والشمال» في سورية ـ الأناضول(١٢٠٠) والآراميين في سورية ـ بلاد ما بين النهرين(١٢٠٠) واليونان المقدونيين (٣٣٠) والرومان(٦٤ق.م.) في الشرق الأدنى إلخ . . .

أ ـ الشرق الآرامي مكمل الشرق الأشوري ـ البابلي والكنعاني إلخ. . .

ويمكننا بخاصة أن نقارن الفترة التي أعقبت إنتشار عرب الإسلام بالفترة التي تلت غزو «شعوب البحر والشمال» حوالي العام ١٢٠٠ق.م. فبعد العام ١٢٠٠ق.م. تغير شكل عالم الشرق الأدنى السياسي والإثني واللغوي والثقافي تغيراً بالغاً. فالتجمعات الإثنية الدخيلة، والتي بفعل الغزو الشمالي، إستقرت تقريباً في كل العالم الشرقي كانت عديدة ومتنوعة أيضاً. ومن كل تلك التجمعات الغازية فإن «الآراميين الرحل»، وهم شعوب سامية خرجت من الصحراء السورية ـ العربية وإستقرت في الهلال الخصيب، وعلى غرار أبناء جنسهم العرب اللاحقين هم الذين سيطروا على السكان السوريين الما بينهرين الأصليين ونقلوا إليهم إسمهم ولغتهم وثقافتهم وتنظيمهم السياسي والإجتماعي.

وبدورهم فرض اليونان المقدونيون (٣٣٠ ـ ٦٤ق.م.) على شعوب الشرق الأدنى أيضاً لغتهم وثقافتهم ومؤسساتهم. ولكن الجماهير الشرقية المناهضة، كما قلنا، لكل ثقافة غير سامية، حافظت على لغاتها وثقافاتها السامية والحامية الخاصة. وحدها نخبات الشرق الأدنى تبنت اللغة اليونانية كلغة ثقافة. وهذا ما سيحصل لاحقاً بالنسبة إلى اللغة التركية بعد غزو

الشـرق العربي مستقبـلاً على يـد الطورانيـين الآسيـويـين الـذين لا ينتمـون إلى العرق السامي.

ب ـ تحـويـل الهـــلال الخصيب إلى الآرامية صـــورة أوليـة عن تعـــريب الشرق الأدنى

إن إنتشار الساميين الآراميين في الهلال الخصيب السامي يجسد سلفاً إنتشار الساميين العرب في البلدان السامية ـ الحامية في الشرق الأدنى. وبالفعل فإن تحويل الهلال الخصيب لغوياً وثقافياً إلى الآرامية والذي سبق بقرون عديدة تحويل العالم الشرقي إلى العربية لم يكن، ونكرر، إلا تغييراً سطحياً. فالطبائع الإثنية الأساسية أو الجوهرية لدى الشعوب الأصلية التي تحولت إلى الآرامية ظلت طبائع ما بينهريي وسوريي العصور السابقة للآرامية. وأما بالنسبة إلى الفاتحين الآراميين أنفسهم والخلاسيين المحليين المتحدرين من إمتزاجهم بالسكان الأصليين فقد إكتسبوا في النهاية الطبائع القومية عند الشعوب التي سادوها وذلك بفعل التأثير المشترك الذي أسهم فيه الزمن والوسط الجغرافي.

لـذا فـإن الشعـوب المختلفـة في الهـلال الخصيب الســابق لــلآراميـة من أشـوريين وبـابليين وأمـوريين وفينيقيين وكنعانيـين وإسرائيليـين إلـخ . . . والتي تحـولت لغويـاً إلى الآرامية في الألف الأول ق.م. عـاودت ظهـورهـا مـع كـل شعب منها من جديد، على المسـرح التاريخي بـالطبـائع الإثنيـة الأساسيـة نفسها التي كانت لأسلافهم وأجـدادهم ما قبـل الآراميين. فهم تخلوا فقط عن لغـاتهم السامية(أشورية ـ بابلية، أمورية،فينيقية، كنعانية، عبريـة، إلخ . . .) ليتبنـوا لغة سامية شقيقة: الآرامية. ولكن هذه التغييـرات الخارجيـة، كما قلنـا، لم تؤثر مـطلقاً عـلى الطبـائع الإثنيـة أو العرقيـة التي يكيفها ويـرسخها عـامـل الـوراثـة والـوسط الجغرافي وتـالياً فهي دائمة نسبيـاً وتحـدد حـركـة المجتمعـات البشـريـة وتطورها.

٤ ـ الشـــرق العـربي والإســـلامي مكمـــل الشـــرق الآرامي، القبطي والمسيحي

إن إستمـرارية التـطور التاريخي في تلك المجتمعـات والتي يؤكدهـا بجلاء تـطور مجتمعات الشـرق أوسطيـة المتوالي بـرغم الإضطرابـات والتبـديـلات التي تعـرضت لها أكـثر من مرة منـذ الأصول وحتى الفتـح العربي ـ الإسـلامي، هذه

الإستمرارية تخولنا دحض فرضية إنقطاع ذلك التطور بدءًا من ظهور الإسلام رغم التغييرات اللغوية والسياسية والدينية والثقافية التي رافقت أو تلت هذا الحدث الكبير في عالم الشرق الأدنى.

إن هذه الحقيقة العلمية والتاريخية تتيح لنا أن نستخلص من كل هذا أن الشرق القديم أو ما قبل العربي والشرق الحديث أو العربي يكوّنان في الواقع كلًا تاريخياً لا يتجزأ منذ الأصول وحتى أيامنا هذه. وإن الفترات المتعاقبة من هذا التطور البيولوجي الطويل تشكل نوعاً ما العهود المختلفة لشعوب الشرق الأدنى. وهي تمثل سلسلة متصلة من الأحداث الكبرى التي تتخلل تطور هذه الشعوب المختلفة قبل الإسلام وبعده.

أ ـ من الشرق ما قبل العربي إلى الشرق العربي

إن الأحداث المتعاقبة التي تتخلل تاريخ الشرق الأدنى في الفترات التي تسبق فوراً الفتح العربي الإسلامي وتليه تنجم من بعضها بعضاً وتتشابك بإحكام كحلقات سلسلة. وإن الشعوب ما قبل العربية وما قبل المسلمة في الشرق المتوسطي والتي كانت تعد، كما قلنا، نحو خمسة وعشرين مليوناً عشية الفتح العربي، تابعت بعد هذا الفتح مجرى تطورها السابق. وقد تخلت فقط عن لغاتها وأديانها لتتبنى لغة الفاتحين العرب ودينهم اللذين كانا على أي حال قريبين من لغاتها وأديانها. ناهيك بأن هذا التحول اللغوي والديني تطلب قرناً أو قرنين من الزمن ليطال تدريجياً معظم شعوب الشرق الأدنى الأصليين.

وسنرى لاحقاً أنه في حين تم التوسع العسكري والسياسي العربي بسرعة فائقة إلا أن الأمر لم يكن بالسرعة نفسها بالنسبة إلى إنتشار اللغة العربية والإسلام. فالسكان الأصليون إحتفظوا طويلاً في أيام الخلفاء العرب والمسلمين بلغاتهم وأديانهم الخاصة. ذلك أن الدولة الإسلامية برغم طابعها التيوقراطي(الإلهي) كانت من حيث الواقع والعقيدة تقبل داخل حدودها بتعايش مجتمعين إزدواجاً: المسلمون وغير المسلمين سواء أكانوا عرباً أم غير عرب.

إن الأمبراطورية العربية الإسلامية، كما على أي حال الأمبراطورية اليونانية ـ الرومانية السابقة، كانت تضم بالفعل وتحت سلطة الخليفة العليا فئة مفضلة: هم من جهة العرب المسلمون والسكان الأصليون الذين إعتنقوا الإسلام ومن جهة أخرى الأتباع أو الذميون: وهم من السكان الأصليين غير معتنقي

الإسلام والذين إحتفظوا بدينهم ولغتهم وأطرهم الإدارية والقضائية وعاداتهم ورؤسائهم الروحيين وأملاكهم وأموالهم لقاء دفع جزية مالية مزدوجة عن الأشخاص والأملاك. وقد كان الفاتحون العرب في موقفهم وسلوكهم متسامحين ومتساهلين إلى حد بعيد فلم يضطهدوا أحداً على الإطلاق لأسباب دينية .

وكان مثل هذا التسامح يحصل أيضاً تحت حكم اليونان ـ الرومان الذين تركوا للسكان الشرقيين الأصليين، كخلفائهم العرب المسلمين، حرية داخلية واسعة وتالياً كان هؤلاء السكان يتميزون بخاصيات شعائرية أو مذهبية ممثلة بملل دينية كانت تغطية لمعارضات ومصالح سياسية وغالباً ما تثير الإنشقاقات والإضطرابات وتجبه مجموعات السكان الأصليين تارة بعضها مع بعض وطوراً بالسلطة القائمة.

سبق ورأينا أن الصراع ضد روما ثم ضد بيزنطية في سورية ومصر لم يقم على الصعيد السياسي بل على الصعيد الديني الذي كان تغطية، كما نعلم، لمعارضات ونزعات سياسية. فالحرية والمعتقدات والممارسات الدينية كانت تجسد في تلك الأزمنة الحرية ووجهات النظر والنشاط السياسي. فكانت النزاعات السياسية المموهة بإنشقاقات دينية هي التي أثارت، كما رأينا، العديد من الثورات اليهودية ضد اليونان ـ السلوقيين وضد الرومان، كما أثارت الإضطهادات ضد المسيحيين الذين كانوا يرفضون تقديم القرابين في عبادة الامبراطور الروماني أو تبني المبادىء الدينية التي كانت تفرضها بيزنطية.

وبالنتيجة فإن التوجه الفكري لمختلف شعوب الشرق الأدنى سواء تحت حكم الرومان أو البيزنطيين أو لاحقاً العرب كان محصوراً بعقائدهم الدينية المختلفة وبمظاهرها الشعائرية والطقوسية المتنوعة وكان لا يبالي بالتنظيم السياسي ما دام أن هذا التنظيم لا يمس مجال حريتهم ونشاطهم الداخليين واللذين كانا يعبر عنهما تحت أغطية دينية. ويمكننا أن نعتبر «أن التعلق العميق الذي كانت تبديه الجماهير الشعبية الشرق ـ أدنوية في ممارسة عبادتها على أنها ثابتة تاريخية. وعندما تخلت هذه الشعوب عن وثنيتها إنكبت بالحمية نفسها على الدين المسيحي ثم لاحقاً على الاسلام»[2].

وأما التعصب الديني الذي سيظهر لاحقاً أيام الخلفاء في بعض الظروف

2 R. Dussaud, *La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam*, p. 155-156.

العارضة فلا ينبغي أن نحمّل سيئاته للدين الإسلامي. فالإسلام، مثله مثل المسيحية، هو دين تسامح في جوهره. وما التعصب وعدم التسامح الا من فعل البشر وليس من فعل الأديان نفسها: ولنذكر أن الشعور الديني هو ميزة عرقية وغريزية في حين أن الدين ليس أكثر من عامل خارجي وسطحي وهو نتيجة وليس سبباً. وقد رأينا أيضاً أن روحية الحملات الدينية كانت قد ظهرت بعنف قبل الإسلام سواء من جانب الفرس المزديين أو البيزنطيين المسيحيين في الصراع الكبير الذي تجابهت فيه الأمبراطوريتان من العام ٦٢٢ إلى العام ٦٢٨ب.م.

إن الشرق الحديث أو العربي هو إذن الوريث المباشر والمكمل الأصيل للشرق القديم أو ما قبل العربي. وإن هذا الشرق وتحت أشكال خارجية جديدة (اللغة العربية، الدين والمؤسسات الإسلامية إلخ...) سيكمل بعد الفتح العربي تطوره التاريخي المقدر بآلاف السنين أسوة بما حصل في الماضي إثر التوسع الآرامي وسيحتفظ بالطبائع العامة نفسها ومراحل التطور نفسها والأساس الثقافي إياه والأفعال وردود الأفعال ذاتها التي كانت لدى الشرق القديم أو السابق للعرب. أليس هذا حال الفرد الذي يحتفظ بطبائعه الوراثية الخاصة الجسدية منها والنفسية برغم كونه، ولأسباب عارضة، قد غيّر اسمه ودينه ولغته ووسطه الاجتماعي؟

ب ـ استمرار الطبائع الاثنية الاساسية في شعوب الشرق ما قبل العربي لدى خلفائهم الذين تحولوا الى العروبة والاسلام.

إن مختلف شعوب الشرق الأدنى قبل الاسلام وبعده هي مكوّنة، كما نعلم، من مزائج إثنية مستقرة، وبفعل طبائعها الأساسية والجوهرية التي تقولبت وترسخت منذ قرون تحت تأثير الوسط الجغرافي والسلالة، يحمل كل منها سمة اصيلة متميزة إلى حد ما وهي ثابتة نسبياً منذ الأصول. وحدها تغيرت او تعدلت أكثر من مرة خلال العصور أسماء تلك الشعوب ولغاتها واديانها ومؤسساتها التي لا تعدو كونها، وكما رأينا صفات ثانوية، متغيرة ولا يمكن نقلها بالوراثة.

ولا ريب بإن إمتزاج السكان الأصليين مع العناصر العربية المهاجرة التي دخلت المنطقة كان من نتائجه تعديل بعض الطبائع الإثنية الأصلية. ولكن هذا التعديل الذي «يدخل عنصر الشباب إلى الدم وليس إلى العرق» هو، كما نعلم، موقت حتماً كما أن الطبائع المعدلة تستعيد دائماً مع مرور الزمن

وإسهام العوامل الجغرافية المحلية سمتها السابقة. وأكثر من ذلك فإن العناصر الدخيلة المهاجرة أكانت عربية أم غير عربية، وتحت تأثير الأحوال الطبيعية في موطنها الجديد، تتخذ هي نفسها تدريجياً الطابع الإثني الذي يطبع السكان الأصليين.

لذا فإن التجمعات الجغرافية أو شعوب الشرق الأدنى التي تحولت إلى العربية والإسلام، إستمر كل منها بالتطور حتى أيامنا هذه بالعلامات المميزة نفسها التي كانت لأسلافها أو أجدادها ما قبل العرب الذين كانوا يعيشون في تلك الأمكنة.

وهكذا رأينا في بلاد ما بين النهرين القديمة شعوب تلك المنطقة التي تعاقبت تحت أسماء مختلفة منذ الأصول (سومريين، أكاديين، بابليين، أشوريين كلدان،مابينهريين، إلخ..) تتميز بطبائعها النفسية العامة شبه الثابتة: شعوب متغايرة، مقاتلة وتاجرة نشطة وقاسية، إستعمارية وواقعية. وإن تلك الطبائع نفسها، كما سنرى، ستظل حتى أيامنا هذه هي طبائع ذرياتها نفسها: عراقيو اليوم الذين تحولوا إلى العروبة والإسلام. المصريون المتحولون إلى العروبة والإسلام، وهم ورثة سكان وادي النيل الفرعونيين والبطالسة والرومان والبيزنطيين الذين شكلوا بإستمرار تقريباً ومنذ القدم شعباً متجانساً ومسالماً، زراعياً ومتسامحاً، مستقراً وقليل الهجرة سيظلون حتى يومنا هذا يتميزون بتلك الطبائع نفسها. ناهيك بالبدو العرب والمسلمين الذين كانوا يجوبون الهضبة السورية ـ العربية فإنهم سيحافظون على الخصائص الجسدية والنفسية نفسها التي كانت لأجدادهم في مرحلة ما قبل الإسلام ممن كانوا يسكنون تلك البلاد نفسها.

أما الممر السوري ـ الفلسطيني (شمال سورية، منطقة دمشق، لبنان، فلسطين، شرق الأردن، القبائل شبه البدوية، الخ...) الواقع بين بلاد ما بين النهرين ومصر والصحراء السورية ـ العربية والبحر المتوسط والذي تجزئه الطبيعة، فسيظل بعد الإسلام كما كان أيام الشرق الآرامي وما قبل الآرامي يضم في مناطقه غير المتجانسة وينمي مجموعات جغرافية ذات شخصية قوية، إقليمية تنزع إلى الإستقلال وتعيش في خصام. وإن هذه الشعوب الصغيرة من عرب أو متحولين إلى العروبة والغيورة على شخصيتها المتميزة وسيادتها السياسية وأسوة بأسلافها ما قبل العرب في الأزمنة القريبة والبعيدة، ستظل

منقسمة دائماً، بفعل انشقاقاتها الدينية وصراعاتها الداخلية وهي مخلفات غريزية لتنافساتها القديمة العهد. وهذه الشعوب التي تضم تجاراً ودبلوماسيين، بارعين ومتقلبين، مهرة وعمليين سوف تسعى دوماً ، كما في العصور الغابرة، أن تتوسع بعضها على حساب البعض الآخر وأن تتخلص في الوقت نفسه من هيمنة الدول الكبرى العربية أو المتعربة المحيطة بها ومطامعها: أي بلاد ما بين النهرين ومصر والجزيرة العربية.

ج ـ عودة ظهور الثوابت التاريخية الخاصة بالشرق ما قبل العربي في الشرق العربي والمسلم

إن الدوائم أو الثوابت التاريخية ستظل، كما في الماضي، تظهر من جديد خلال القرون المقبلة في إطار التطور الخاص بمختلف البلدان المتحولة إلى العروبة والإسلام.

فبعد موت الخليفة عثمان (٦٥٦) وهو ثالث خليفة للنبيﷺ، سنرى التنافس القديم بين بلاد ما بين النهرين ومصر اللتين ضمتا لتوهما الى امبراطورية الخلفاء يقفز من جديد إلى الواجهة وبعنف ويتخذ شكل نزاع على تولي الخلافة. وهذا التنافس الذي سيتواجه فيه الخليفة علي(٦٥٦ ـ ٦٦١) يدعمه العراق وإيران من جهة، ومعاوية (٦٦١ ـ ٦٨٠) المدعوم من سورية ومصر من جهة أخرى سيستمر بعد سقوط خلافة دمشق (٧٥٠) وحتى القضاء على خلافة بغداد.

وسنشهد أيضاً في الشرق المتحول إلى العروبة يقظة الإنقسامات والصراعات الدينية التي كانت تحدث في أزمنة ما قبل الإسلام، والتي تمثل الإنقسامات القبلية والمعارضات السياسية والتطلعات الإستقلالية لدى المجتمعات الشرقية السابقة للعرب. وستحل الطوائف السياسية ـ الدينية الإسلامية من مستقيمة الرأي أو منشقة أو غير ملتزمة (سنّة، خوارج، قرامطة، شيعة، إلخ . . .) محل سابقاتها الطوائف السياسية ـ الدينية المسيحية (القائلة بالطبيعتين، والطبيعة الواحدة والنسطورية والمشيئة الواحدة، إلخ . . .) وستستمر في جدلها الديني وصراعاتها السياسية حول عقائد جديدة.

سنشهد أخيراً إحياء الصراعات الخارجية القديمة والتي ستجبه بإستمرار، وإسوةً بما كان يجري قبل الإسلام، سادة الهلال الخصيب المتعاقبين (من خلفاء دمشق والمدينة وبغداد العرب، وسلاطين بغداد السلاجقة ـ الأتراك، الخ . . .) من جهة وسادة آسيا

الصغرى (من بيزنطيين وفيما بعد الأتراك) وإيران (الخراسانيين والصفويين والأتراك، الخ. . .) فضلاً عن القبائل البدوية المتنقلة في الصحراء السورية ـ العربية (من كلبيين وقيسيين وقرامطة، الخ. . .) من جهة أخرى.

٥ ـ الخلاصة

إن إنتشار الساميين العرب خلال القرن السابع ب.م.، على نحو إنتشار الساميين الآراميين العام ١٢٠٠ ق.م.، أثار في عالم الشرق الأدنى إضطرابات جديدة في المجالات السياسية واللغوية والدينية والإجتماعية وحتى الإقتصادية. ولكن إنسان الشرق الأدنى الذي تعرّب وأسلم بعد العام ٦٤٠م.، وأسوة بجده الذي تحول إلى الآرامية في الألف الأول ق.م. ثم إلى المسيحية في الألف الأول ب.م.، لن يكون هو أيضاً «آدم جديداً بل آدم القديم نفسه» وقد تجدد شبابه موقتاً بفعل التطعيم العربي. وسيستبدل فقط ومرة أخرى لغته السامية (الآرامية) ولغته الحامية (القبطية) النسيبتين بلغة جديدة نسيبة لهما هي اللغة السامية العربية كما سيتخلى عن أديانه السامية الشرقية (المسيحية، اليهودية، الزرادشتية، الوثنية) ليعتنق ديناً جديداً هو الإسلام الذي يتماشى مع حياته النفسية والذي تعتبر مقوماته الأساسية أصلاً، كما سنرى لاحقاً، سامية عربية وشرق أدنوية.

إن هذه التغييرات السطحية لن يكون من نتائجها إذن سوى إستبدال بلاد ما بين النهرين وسورية الأراميتين والمسيحيتين ومصر الحامية والمسيحية ببلاد ما بين النهرين وسورية ومصر العربية والمسلمة. إن الطبائع الإثنية الأساسية أو القومية التي بوتقتها البيئة الجغرافية ورسخها عامل الوراثة، سوف تظل تميز، كما كانت تفعل قبل الاسلام، مختلف المجموعات الجغرافية أو شعوب الشرق الأدنى كلاً بميزاته الخاصة به.

ومن جهة أخرى فإن الدوائم أو الثوابت الجغرافية والنفسية والتاريخية نفسها التي أشرنا إليها آنفاً، ستظل كما كان الوضع قبل الإسلام تبرز خلال التطور اللاحق للشعوب المتحولة إلى العروبة والإسلام.

وهكذا وإثر الفتح العربي ـ الإسلامي، وكما في العصور السالفة، فإن المنافسات والإضطرابات والثورات والصراعات والحروب التي تثيرها سواء في الداخل أو في الخارج الأسباب العامة نفسها، ستظل تسم تطور شعوب

الشرق الأدنى. وهذه العوامل الثابتة المتفرقة ستنهك قوى أمبراطورية الخلفاء العربية ـ الشرقية والإسلامية، وسوف تفضي في النهاية إلى تفكيكها كما عملت على إنهاك وتفكيك سابقتها المباشرة الأمبراطورية اليونانية ـ البيزنطية والمسيحية أو أمبراطورية الشرق الرومانية.

وخلاصة القول فإن الشرق العربي هو متصل بالشرق السابق للعرب ومكمل له.

ج. ب.